

المنهج المقارن

اشتغلت المناهج النقدية التي رأيناها سابقا على النص الأدبي من زوايا مختلفة ، لكن الذي يجمع بينها أنها اهتمت بالنص من حيث علاقته بالسياق الذي أفرزه ، و نقصد بذلك السياق التاريخي أو الاجتماعي أو النفسي . و في جميع الحالات درس النقاد النص في بيئته بمعزل عن النصوص الأخرى في بيئات أخرى و أزمنة أخرى ، و هو الأمر الذي يهتم به المنهج المقارن. و الواقع أنه لا يمكننا الحديث عن المنهج المقارن بمعزل عن مصطلح الأدب المقارن. و الأدب المقارن هو - و كما حدده فان تيغم أحد رواد المدرسة الفرنسية- هو "دراسة مؤلفات مختلف الآداب في علاقاتها ببعضها"() و هو أيضا "دراسة أية ظاهرة أدبية من وجهة نظر أكثر من أدب واحد ،في اتصالها أو عدمه ،بعلم آخر أو أكثر من علم" () بحسب تصور المدرسة الأمريكية التي وسعت آفاق الدراسات المقارنة . و قد سمحت التطورات العلمية و الفكرية الحاصلة في تاريخ البشرية بتطور اهتمامات الأدب المقارن حيث انجذب إلى " موضوعات جديدة غير معهودة في السابق و تتعلق بالمرأة و الطفولة والأقليات و أدب الهامش و التراسل بين الفنون و الآداب و الاستشراق و الاغتراب و الهوية و الترجمة و الدراسات الثقافية و الصورولوجيا و الأدب الإلكتروني و حوار الآداب و آداب ما بعد الكولونيالية و غير ذلك من الموضوعات التي فرضها التي فرضها التطور المذهل الذي تحقق في العلوم الإنسانية و الاجتماعية"() .

و إذا تأملنا تاريخ الدراسات المقارنة يمكن القول إنها ابتدأت في منتصف القرن التاسع عشر في فرنسا، و نمثل ببول فان تيغم و ماريوس فرانسوا غويار ثم تطورت في أمريكا مع هنري ريماك و رينيه ويلك و توسعت لتشمل « البحث والمقارنة بين العلاقات المتشابهة في الآداب المختلفة، وبين الآداب وبقية أنماط الفكر البشري من علوم وفنون"()

و على العموم فالدراسة المقارنة انشغلت غالباً بمحاور بحث تتمثل بشكل خاص في:

- تأثير أدب أمة في أدب أمة أخرى
- تأثير أدب أمة في أديب أجنبي
- تأثير أديب في أدب أجنبي
- تأثير أديب في أديب أجنبي
- صورة بلد في أدب أجنبي
- صورة بلد كما يراها أديب أجنبي
- صورة أمة في أدب أجنبي
- الأجناس الأدبية الشعرية والنثرية ()

و إذا كانت مجالات الدراسة المقارنة واضحة عموماً بين الدارسين فمنهجية الدراسة تظل متباينة بينهم ، فمنهم من عنى بظروف التشكل و منهم من عنى بمحتوى العملين اللذين تجري المقارنة بينهما ، و منهم من عنى بهيكل العملين ..إلخ. و لكن على العموم هناك مجموعة أسس قامت عليها الدراسات المقارنة ، سنلخصها مع عبد النبي أصطيف فيما يأتي:

-إقامة الدليل الداخلي : و يعد هذا الإجراء نقطة الانطلاق في عمل المقارن ، ذلك أن " هذه الصلة الخارجية مع الآخر، سواء أكان ذلك في مجال الأدب أم الفن أم الفكر أم الثقافة أم غيرها، هي مسوغ الدراسة المقارنة أصلاً مهما بلغ نفور المرء من مسألة التركيز على التأثير والتأثير، والتداين، في الأدب المقارن، والتي كثيراً ما قُرِعَ أنصار المدرسة الفرنسية في فرنسا وخارجها لإلحاحهم عليها. ولولا وجود هذه الصلة لاتخذت الدراسة الأدبية للنص منحى آخر غير المنحى المقارن" (). و الصلة مع الآخر تتخذ بطبيعة الحال وجهها بارزاً في مستوى معين من مستويات النص ، و على الدارس تحديد ذلك المستوى أولاً.

-إقامة الدليل الخارجي: و هو دليل "فوق نصي" يستند الدارس في تأسيسه على السياق الثقافي الذي وُجد فيه النص . إنه يلتزم من " من الوثائق والوقائع والسجلات المتصلة بالتاريخ الثقافي الخاص بالأدب القومي، أو بالأدب الوسيط، أو بأدب الآخر" () و تتمثل هذه الوثائق و السجلات في الدراسات المتعلقة بالنصوص و الشهادات و كتب تاريخ الأدب و التاريخ الشخصي للكاتب و ما إلى ذلك.

-وضع الدليلين الأول و الثاني في السياق الدال : ذلك أن " السياق مع العنصر الأجنبي هو الذي يحدد في النهاية دلالة التماس و أهميته و حوافزه و دوره في هذا النص" () و لعل أهمية هذه الخطوة تكمن في كونها تسمح بإضاءة التطورات التي مست التقليد الأدبي الذي ينتمي إليه النص المدروس ، و باقي التطورات الفكرية و الثقافية و السياسية و الاجتماعية التي رافقت عملية إنتاج النص.

-النظام النقدي و الإحساس بالقيمة: و معنى ذلك أن " أن الحديث عن أية صلة بين عمل أدبي قومي ومؤثر أجنبي ينبغي ألا يجري بمعزل عن نظام نقدي ما يحكم نظرتنا وتقديرنا وتقويمنا للعمل الأدبي المدروس" () حيث أن الدارس المقارن هو ناقد أدبي بالدرجة الأولى ، و بالتالي فعمل المقارنة هذا يجب أن يتكئ على مقومات نقدية تسمح بفعل التقييم المستمر.

-العمل الأدبي كل لا يتجزأ و نظام دلالي متماسك : لا يجب في النقد المقارن الانشغال فقط بالعثور على الصلة بين نص و آخر ، بل على الناقد " ألا ينسى أن العمل الأدبي قبل كل شيء أثر له كيانه و وحدته واستقلاله ، وأنه نظام دلالي متماسك وأن دراسته للصلة الأجنبية فيه، ليست إلا إلقاءً لبقعة ضوء ضرورية على علامة أو أكثر من النظام الدال الذي يشكله، وأن فهم هذه العلامة مرهون بمعرفة موقعها من هذا النظام وأن فهم آلية هذا النظام ومكوناته وعناصره الصغرى وآلية إنتاجه للمعنى وللدلالة هو هدفه الاستراتيجي البعيد" () إن المسألة إذن ليست فقط مسألة رصد ظاهرة التأثير والتأثر بين مؤلف و مؤلف ، و لكنها مسألة مقارنة عمل أدبي له وحدة ما و خصوصية ما.